

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبعد، فهذه سورة المؤمنون المكية، والتي روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بخصوصها أنه قال: كان إذا نزل على رسول الله الوحي نسمع عند وجهه دوي كدوي النحل، فأنزل عليه يومًا فمكثنا ساعة، فسري عنه، فاستقبل القبلة، ورفع يديه، فقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا» ثم قال: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات.

وفيهما يقول تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
الْغَوِّ مَعْرُضُونَ ۝ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ۝ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ (٦)
فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاقُونَ ۝ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ (١٠)﴾

والمعنى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بالله ورسوله وكتابه، الموصوفون

بمجموع هذه الصفات:

الأولى: الخشوع في الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ لله.

الثانية: الإعراض عن اللغو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ من الكلام وغيره

﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن المشاركة فيه، والتسبب له، بل عن حضوره أيضًا.

الثالثة: أداء الزكاة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي: مداومون على أدائها.

الرابعة: حفظ الفروج ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ﴾ عوراتهم، رجالًا كانوا أو نساء

﴿حَافِظُونَ﴾ عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانهم ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ﴾ أي: طلب قضاء شهوة

﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: في غير الزوجة والأمة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

المتعدون المعتدون على ما حرم الله.

الخامسة: حفظ الأمانات والعهود ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ﴾ جميعها، سواء كانت بينهم

وبين الله، أو بينهم وبين الناس ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي: وعهودهم، كذلك ﴿رَاعُونَ﴾

أي: حافظون، وقائمون عليها، ومؤدون لها.

السادسة: المحافظة على الصلوات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يؤدونها

كاملة، تامة، في أوقاتها.

يقول ربنا سبحانه عن هؤلاء: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات ﴿هُمْ﴾

الْوَارِثُونَ لا غيرهم.

ولكن الوارثون لماذا؟ يقول الحق سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

يعني: هؤلاء هم الوارثون ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وهو أعلى وأعظم الجنان

﴿هُمْ فِيهَا﴾ في جنة الفردوس ﴿خَالِدُونَ﴾ لا يتحولون عنها، ولا يخرجون منها،

ولا يموتون فيها، اللهم اجعلنا منهم، وأسكننا معهم يا رب العالمين.

إن الله تعالى لما وصف المؤمنين بهذه الصفات، كان ذلك طلبًا لها منهم، وتكليفًا

لهم بها، والاشتغال بها، والتحصيل لها: عبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بعد معرفة الإله

الخالق، فقد جاء سبحانه، بأربعة أنواع من الدلائل على وحدانيته، ووجوده، وقدرته،

وعظمته سبحانه، حيث قال في النوع الأول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ (١٤) ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٧)

في هذه الآيات الكريمة دليل على وحدانية الله وقدرته وعظمته، من خلال تقلب الإنسان في أطوار خلقه، وهي تسعة أطوار وبيانها على النحو التالي:

الطور الأول: خلق الإنسان من سلالة من طين ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾.

الطور الثاني: جعله نطفة في قرار مكين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾. أي: نطفة من الأب، تصير ثابتة في رحم الأم.

الطور الثالث: تحويل وخلق النطفة علقه ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ قطعة دم جامدة، تتعلق بجدار الرحم.

الطور الرابع: تحويل وخلق العلقه مضغة ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: قطعة لحم، قدر ما يمضغ.

الطور الخامس: تحويل وخلق المضغة عظامًا ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾.

الطور السادس: تكسية العظام باللحم ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.

الطور السابع: تحويل هذا الخلق خلقًا آخر مختلف عنه تمامًا ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ حيث صار حيوانًا بعد أن كان جمادًا، وناطقًا بعد أن كان أبكمًا.. إلى غير ذلك مما هو معروف ومشاهد.

لذلك يقول سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

الطور الثامن: الموت بعد ذلك ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

الطور التاسع: البعث والإحياء والإعادة مرة أخرى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

ثم يقول ربنا عز وجل في النوع الثاني من الدلائل على وحدانيته ووجوده، وقدرته وعظمته سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)

يعني: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سموات، وسميت السموات طرائق؛ لأنها طرق الملائكة.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ الموجودين تحتها ﴿غَافِلِينَ﴾ عنها وعنهم، حتى لا تسقط عليهم فتهلكهم، بل يمسكها الله بقدرته، آية من آياته، وهي آية تستحق الشكر الدائم لله الواحد القادر سبحانه وتعالى.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى في النوع الثالث من الدلائل على وحدانيته ووجوده، وقدرته وعظمته سبحانه:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨)
فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلَّالِ كِلَيْنِ﴾ (٢٠)

يعني: ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ لكم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَاءً﴾ تشربون منه، وتنتفعون به ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بمقدار تسلمون معه من الضرر، وتصلون به إلى المنفعة، في الزرع، والغرس، والشرب.. إلخ.

﴿فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وجعلناه ثابتاً في جوفها، وعلى ظهرها.

﴿وَأِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ فتموتون مع دوابكم عطشاً، ولكننا لا نفعل لطفاً بكم، وعطفاً عليكم بل أبقينا الماء ساكناً في الأرض ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ وكذلك ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنات ﴿فَوَكُهُ كَثِيرَةٌ﴾ تأكلونها.

﴿وَمِنْهَا﴾ أي: من الجنات ﴿تَأْكُلُونَ﴾ أي: تتخذون جِرفاً تتعاشون منها.

﴿و﴾ كذلك: أنشأنا لكم بالماء ﴿شَجَرَةً﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ وهو أول مكان ظهرت فيه شجرة الزيتون ثم نقلت إلى غيره ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ الذي هو زيتها والذي هو ﴿صِبْغٍ﴾ إدام ﴿لِلَّالِ كِلَيْنِ﴾.

وكل ذلك آيات تستحق الشكر الدائم لله الواحد القادر سبحانه وتعالى.
ثم يقول ربنا جلت حكمته في النوع الرابع من الدلائل على وحدانيته ووجوده،
وقدرته وعظمته سبحانه:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

في هاتين الآيتين الكريمتين دليل على وحدانية الله وقدرته من خلال الأنعام ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ودلالة على وحدانيته سبحانه وذلك: من أربعة أوجه:

الوجه الأول: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ بَيْنَ الْأُصْبَاعِ﴾ [النحل: ٦٦].

الوجه الثاني: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي حية.

الوجه الثالث: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهي مذبوحة.

الوجه الرابع: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: هي في البر مثل السفن في البحر، في النفع لكم، والحمل لأغراضكم.

وكل ذلك آيات تستحق الشكر الدائم لله الواحد، القادر سبحانه وتعالى.

لما بين ربنا دلائل توحيده، أتبع ذلك بذكر مجموعة من القصص للأنبياء الداعين لوحداية الله، وكانت القصة الأولى وهي: قصة نوح عليه السلام. يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ برسالتنا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم فيها إلى توحيد الله وعبادته ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ﴾ وحده وأطيعوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يستحق أن يعبد.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ غضبه، وعقوبته، حينما تعبدون غيره؟

ماذا كان ردهم عليه، وإجابتهم له؟

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ** ﴿٢٥﴾

يعني: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: السادة الذين يتصدرون القوم، ويمثلون العيون إبهارًا، و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ للعامة منهم، ردًا على دعوته لهم، خمسة أشياء:

الأول: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي يدعوكم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وليس ملكًا، وهو ﴿يُرِيدُ﴾ بدعوته هذه ﴿أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ويصبح رئيسًا لكم.

الثاني: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانكم به ﴿لَأَنْزَلَ﴾ لكم ﴿مَلَائِكَةً﴾ يدعونكم إلى هذا الإيمان، الذي يدعيه.

الثالث: ﴿مَا سَمِعْنَا﴾ مثل ﴿هَذَا﴾ وهو أن يكون الرسول بشرًا ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

الرابع: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: نوح عليه السلام ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ وليس برسول ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون، حينما يزعم أن الله اختصه وحده بهذه الرسالة.

الخامس: ﴿فَتَرَبِّصُوا بِهِ﴾ أي: انتظروا واصبروا عليه فترة، حتى يفيق من جنونه، وإلا فاقتلوه.

ليس فيما ذكره رد حقيقي على دعواه لهم بل كلها استهزاء به، وتكذيب له، وتهديد إليه، وهي عادة الطغاة مع الدعاة في كل العصور.

ولكن ماذا فعل نوح عليه السلام؟

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ (٢٦)

أي: لجأ إلى ربه، وطلب عونه، ونصرته.

أندرون ماذا كانت نتيجة دعائه؟ استجاب الله له، يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

يعني: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ وهي السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ تحت رعايتنا وحفظنا لك ﴿وَوَحَّيْنَا﴾ وأمرنا وتعليمنا لك صنعها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب والإغراق لأعدائك ﴿وَفَارَ الْتَوْرُ﴾ أي: تفجر الماء من العيون ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا﴾ أي: أدخل في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ﴾ أي من كل صنف من أصناف المخلوقات ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى.

و أدخل فيها كذلك ﴿أَهْلَكَ﴾ ومن معك من المؤمنين والمؤمنات ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ من الله بالإهلاك ﴿مِنْهُمْ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، فلا تدخلهم.

و بعد ذلك ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي﴾ وتسالني ﴿فِي﴾ نجاة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكفروا، حيث ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ على ما هم عليه من الكفر.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ راكبًا ﴿وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنا مِنْ﴾ مصير ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يغرقون.

و أيضًا ﴿قُلِ﴾ إذا خرجت منها بعد انتهاء الطوفان، وجفاف الماء ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا﴾ فيه: كثرة النسل، وتتابع الخيرات ﴿وَأَنْتَ﴾ وحدك ﴿خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ فاختر لنا ما تراه خيرًا يا رب العالمين.

حقًا.. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿٣٠﴾

أي: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الصنيع من نوح للسفينة، والطوفان، وإهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على صدق الأنبياء فيما دعوا إليه، ودالة على توحيد الله وقدرته.

وكذلك هي اختبارات للعباد ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لنعرف مَنْ يُؤْمِن وَمَنْ يَكْفِر،
فنتجي مَنْ يُؤْمِن، ونهلك مَنْ يَكْفِر.

ثم كانت القصة الثانية وهي: قصة هود عليه السلام. يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٣١)

أي: ثم خلقنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: أهل
قرن آخرين، وهم: عاد قوم هود.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣٢)
يعني: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ وهو هود عليه السلام ﴿مِنْهُمْ﴾ وليس من غيرهم، فقال
لهم ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده وأطيعوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يستحق أن يعبد.
﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ غضبه وعقوبته، حينما تعبدون غيره؟

فماذا كان ردهم عليه، وإجابتهم له؟

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٣٣) وَلَئِنْ
أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ (٣٤) أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا
وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ (٣٥) هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٧)

يعني: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: السادة الذين يتصدرون القوم، ويمثلون العيون إبهارًا ﴿مِنْ
قَوْمِهِ﴾ وهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله تعالى.

﴿وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ﴾ الله في ﴿الْآخِرَةِ﴾ وهي يوم القيامة.

﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد، قالوا
أمرين:

الأول: إنكار النبوة، حيث قالوا: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي يدعوكم ﴿إِلَّا بَشَرٌ

﴿مِثْلُكُمْ﴾ وليس ملكاً، كما أنه ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ منه.

و على هذا ﴿لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ وآمنتُم بإله واحد ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَحِصْرُوتُ﴾.

الثاني: إنكار البعث حيث قالوا: ﴿أُبْعِدُكُمْ﴾ هود ﴿أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ﴾ بعد الموت ﴿تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ بالية ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ مرة أخرى، للحساب والسؤال والثواب والعقاب.

أبدًا، أبدًا ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ﴾ بعيد بعيد ﴿لَمَّا تُوْعِدُونَ﴾ به من البعث والحساب والثواب والعقاب، ولكن الحقيقة التي نؤمن بها، ولن نحيد عنها.

﴿إِنْ هِيَ﴾ ما هي ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أن يموت بعضنا ويولد غيره، يذهب أناس ويأتي غيرهم، هكذا ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ إذا متنا ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ كما يقول. ولذلك فحكمنا عليه ما يلي:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٣٨)
يعني: ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا﴾ مجرد ﴿رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ فيما يدعيه، ويدعو إليه ﴿كَذِبًا﴾ ولم يرسله أحد، وبالتالي ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولا لدعوته بمتبعين.

نلاحظ أنه ليس في كل ما ذكره وما حكموا به، ردّ حقيقي على دعواه لهم بل كلها استهزاء به، وتكذيب إليه، وهي عادة الطغاة مع الدعاة في كل العصور. ولكن ماذا فعل هود عليه السلام؟

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾^(٣٩)

أي: لجأ إلى ربه، وطلب عونه ونصرته.

ماذا كانت نتيجة دعائه؟ لقد استجاب الله دعاءه، حيث :

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ (٤١)

يعني: بعد قليل سينزل بهم العذاب، فإذا ما عاينوه، صاروا نادمين، ولكنه ندم عقيم لا يفيد. وبالفعل..

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٢)
أي: نزل بهم العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ من جبريل عليه السلام ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل، الذي يستحقونه؛ نتيجة كفرهم وطغيانهم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بهذا العذاب ﴿غُثَاءً﴾ أي: دمرهم حتى صاروا مثل ما يحمله السيل من الورق الجاف وغيره.

﴿فَبَعْدًا﴾ وهلاكًا ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين.

ثم كانت القصة الثالثة، وهي: على سبيل الإجمال لعدد من الأنبياء يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ﴾ (٤٣) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ
(٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُولُهَا كَذَبُوهُ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا
وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٤)

يعني: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وهم قوم عاد ﴿قُرُونًا﴾ أي: أهل قرون ﴿ءَاخِرِينَ﴾ مع أنبيائهم، وكان لكل أمة أجل وموعده تأتي فيه ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ بأن تموت أو تهلك قبله ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ عنه كذلك.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ إليهم ﴿تَتْرًا﴾ متتابعة، واحدًا بعد واحد؛ يدعونهم إلى توحيد الله، وعبادته، والعجيب أنه كان ﴿كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً﴾ منهم ﴿رُسُولُهَا﴾ ودعاهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿كَذَبُوهُ﴾ وعاندوه وحاربوه.

﴿فَ﴾ أهلكناهم و ﴿أَتَّبَعْنَا﴾ في الهلاك ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ كذلك ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ في أفواه التاريخ ﴿أَحَادِيثَ﴾ يرويها الناس لبعضهم البعض.

ولأنهم ظلموا، ولم يؤمنوا، ولم يتبعوا رسلهم ﴿فَبُعْدًا﴾ من رحمة الله، وهلاكًا ﴿لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم تكون القصة الرابعة، وهي: قصة موسى وأخيه هارون عليهما السلام. يقول الواحد الأحد سبحانه:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يعني: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾ من جهتنا ﴿مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وهي العصى، واليد، وغيرهما ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: حجة واضحة قوية ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ الذين يتصدرون الناس، ويمثلون العيون إبهارًا يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادته، وطاعته.

فماذا فعلوا؟ يقول تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: امتنعوا عن الإيمان، والاعتراف بوحدانية الله، وقدرته تكبرًا منهم، وعنادًا، وترفعًا.

﴿وَكَانُوا﴾ بطبيعتهم ﴿قَوْمًا عَالِينَ﴾ مترفعين على الحق، غير مذعنين له. ولأنهم كانوا كذلك فقد قالوا لقومه؛ ليصرفوهم عن الإيمان ﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَلَيْسُوا مَلَائِكَةً، أَيْضًا﴾ ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ بنو إسرائيل ﴿لَنَا عِدُونَ﴾ خاضعون مطيعون، على هذا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ ولم يؤمنوا، فاستحقوا العذاب، فعذبهم الله بالإغراق ﴿فَكَانُوا﴾ بهذا ﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ونجى الله موسى وقومه من فرعون وقومه. ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ بعد نجاته بقومه من فرعون ﴿الْكِتَابَ﴾ الذي هو التوراة، فيه تشريعات وهداية لبني إسرائيل، وكان ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ به، فيعبدون الله، ويطيعونه.

ثم تأتي القصة الخامسة وهي: قصة عيسى ومريم عليهما السلام، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾
 يعني: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى عليه السلام ﴿وَأُمَّهُ﴾ مريم عليها السلام ﴿وَأَوَيْنَهُمَا﴾
 وحدائتنا وقدرتنا؛ حيث خلق من غير نطفة؛ وهي ولدت من غير لقاء، ﴿وَأَوَيْنَهُمَا﴾
 وأوصلناهما ﴿إِلَى رِبْوَةٍ﴾ مرتفع من الأرض، يحتميان بها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يستقران
 عليها، ويستريحان فيها، ويعيشان على ثمار أشجارها ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء طاهر عذب،
 يشربان منه. وبعد، فيقول الله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ
 هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

والمعنى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ وهذا النداء والخطاب، وإن جاء في الآية بلفظ الجمع..
 إلا أنه في التنفيذ نودي كل رسول على حدة، وخوِّط بقوله: ﴿كُلُّوا﴾ أنت وقومك
 ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الحلال ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ يرضي الله تعالى، ويصلح البلاد،
 ويسعد العباد، ولا تخالفوا أوامري حيث ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ به، أجازي عليه
 أيضًا ﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ أي: ملة الإسلام ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ يا معشر الرسل والأقوام ﴿أُمَّةً
 وَاحِدَةً﴾ ملة واحدة، وشريعة واحدة.

﴿فَاتَّقُونِ﴾ فخافوا عقابي، ولا تختلفوا حولها، ولا تتنازعوا فيها.

ماذا كانت مواقف أقوام الرسل أمام هذا النداء الإلهي؟ يقول المولى عز وجل:

﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾
 أي: ﴿ف﴾ اختلفوا، و ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم﴾ أي: أمر دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ وجعلوه
 قطعاً، أي: أدياناً، وصاروا بالتالي فرقاً وأحزاباً وحرفوا بهذا دين الله.

والعجيب أنه كان ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مما فعلوه حسب هواهم من الدين
 ﴿فَرِحُونَ﴾ لأنهم معتقدون أنهم على الحق وحدهم.

وبذلك عم الضلال، وانتشر الباطل، وتوارى صحيح الدين، فعبدت الأصنام، وحارب
 التوحيد حتى وصل ذلك إلى كفار مكة، ولذلك يقول ربنا لمحمد ﷺ:

﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

هذا الكلام وإن كان لمحمد ﷺ، إلا أنه يدخل فيه التوجيه لكل الدعاة المستضعفين أمام الطغاة المعاندين، في كل العصور.

والمعنى: ﴿فَذَرَّهُمْ﴾ أي: فاتركهم، بعد أن دعوتهم، وأنذرتهم ﴿فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أي: جهالتهم وعنادهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن يقتلوا فيه أو يموتوا، لقد اغتروا ﴿أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ﴾ ونعطيهم إياه ﴿مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ في هذه الدنيا ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ لحبنا لهم، وكرامتهم عندنا؟ كلا وألف كلا، نحن لا نفعل ذلك لهذا الذي يظنون إنما هو استدراج لهم؛ لزيادة عذابهم على عدم شكرهم وإيمانهم، ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك؛ لأنهم بلا عقول يفهمون بها.

وإذا كان هؤلاء في غمرتهم يعمهون، ويحسبون أننا نسارع لهم في الخيرات، وهم في الحقيقة لا يشعرون، ولا يعرفون الصواب، فهذه هي صفات الذين يسارعون في الخيرات حقيقة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِثَابِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

تذكر هذه الآيات الكريمة صفات المؤمنين الذين يسارعون في الخيرات، وهي أربع صفات:

الأولى: أنهم ﴿مِنْ خَشْيَةِ﴾ عذاب ﴿رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون، دائمون في طاعته، جادون في مرضاته سبحانه.

الثانية: أنهم ﴿بِإِثَابِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته، من مسطوره ومنظوره ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون.

الثالثة: أنهم ﴿بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ معه أحداً في خلقه، ولا في عبادته.

الرابعة: أنهم ﴿يُؤْتُونَ﴾ يعطون ﴿مَا آتَوْا﴾ من الصدقة والأعمال الصالحة

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ خائفة أن لا تقبل منهم؛ لأنهم يوقنون
﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ وسيحاسبهم، ولن يقبل منهم إلا ما كان خالصاً
لوجهه سبحانه.

حقاً: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم الذين ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والأعمال الصالحة
مرضاة الله تعالى، ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ بالفعل ﴿سَافِقُونَ﴾ في نوال جزائها الطيب من الله
تعالى.

واعلموا جيداً أن هذه الصفات الأربع، التي نرجو الله تبارك وتعالى أن يعيننا على
التحلي بها، هي في مقدور الإنسان، وليست فوق طاقته، كما أن ثوابها لا يضيع أبداً
يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٢)

يعني: ما كلف به الإنسان وطولب به من العمل الصالح، هو في طاقته وإمكاناته التي
أودعها الله فيه؛ حيث ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
أيضاً، ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ تسجل فيه أعمال العبد، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أَخَصْنَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

هذا الكتاب: ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ الذي فيه أعمال العباد.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بضياع شيء منه أو إخفاء شيء فيه، ولا زيادة عليه، ولا
نقصان منه.

وهذا الكلام يصدق على المؤمنين، وعلى الكافرين والمؤمنون يعلمونه، ويؤمنون به
أما الكافرون، فيقول عنهم الحكيم الخبير:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَهُمْ أََعْمَلُ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ (٦٣) **حَتَّىٰ**
إِذَا أَخَذْنَا مَّتَرَفِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ (٦٤)

يعني: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الكافرون على غير ما عليه قلوب المؤمنين؛ إذ هي ﴿فِي
غَمَرَةٍ﴾ غفلة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ القرآن وما فيه، مما ينفعهم كذلك ﴿وَهُمْ أََعْمَلُ﴾ سيئة

﴿مِنْ دُونِ﴾ أي: غير ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من أعمال المؤمنين، ومضادة لها ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُوا﴾ وعلى أداؤها مستمرين، معاندون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمُ﴾ أغنياءهم، ورؤساءهم، المنعمين فيهم بالعذاب ﴿إِذَا هُمْ﴾ جميعاً ﴿يَجْشَرُونَ﴾ يصرخون، ويستغيثون. وساعتها يقال لهم:

﴿لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُصْرُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ نَكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

أي: ﴿لَا تَجْعَرُوا﴾ لا تصرخوا ولا تستغيثوا بنا ﴿الْيَوْمَ﴾ حيث ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُصْرُونَ﴾ ولا من أحد غيرنا يا هؤلاء.. ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي﴾ في القرآن، الدالة على وحدانيتي وقدرتي ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ رجاء إيمانكم بها، وطاعتكم لربكم ﴿فَكُنْتُمْ﴾:

أولاً: لا تؤمنون و ﴿عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أدباركم ﴿نَكِصُونَ﴾ ترجعون بدون إيمان للوراء، لا عن عيب في هذا القرآن، ولا عن عدم فهم لآياته؛ إذ هو بلسان عربي مبين.

ثانياً: بل كنتم ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: متكبرين بالواقع الذي كنتم عليه، وهو أنكم أهل البيت والحرمة عن قبول الحق الذي في القرآن.

ثالثاً: وكنتم تتخذون القرآن ﴿سَمِرًا﴾ لكم تسمرون به وتحدثون عنه في مجالسكم وسهراتكم، كما كنتم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفحش القول فيه.

وبعد أن وصف الله حالهم من أنهم كانت تتلى عليهم الآيات، فلا يؤمنون، بل على أدبارهم ينكصون مستكبرين، وأنهم يتخذون القرآن لهواً وسمراً، فيه يهجون ويفحشون بين الله عز وجل أن ذلك الموقف لا بد أن يكون منهم لواحد من هذه الأمور التالية: حيث يقول:

﴿فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ لُحُوفُ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ

فِيهِمْ بَلْ أُنِيتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا
فَخَرَجَ رِيكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ ﴿٧٢﴾

يعني: ﴿أ﴾ وقفوا هذا الموقف، فكفروا؛ لواحد من هذه الأمور:

أولها: أنهم ﴿لَمْ يَذَبَرُوا الْقَوْلَ﴾ وهو القرآن، فيستدلون به على صدق النبي ﷺ!!
ثانيها: ﴿أَمْ﴾ لأنه ﴿جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وطبعًا هم على آثارهم

مقتدون، فلذلك ينكرون..؟

ثالثًا: ﴿أَمْ﴾ لأنهم ﴿لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ محمدًا بالصدق والأمانة والشرف،

﴿فَهُمْ لَمَوْءُونَ﴾ بناءً على عدم المعرفة المفترض ﴿مُنْكَرُونَ﴾ لرسالته؟
رابعها: ﴿أَمْ﴾ لأنهم يكذبون، و ﴿يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: أصابه مس من

الجنون، فهو يهذي بهذا الكلام، وليس برسول لا، لا هذا ولا ذاك.

﴿بَلْ﴾ قد ﴿جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن، المشتغل على دعوتهم للتوحيد،
وطاعة الله، واتباع شرائع الإسلام، لكن ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لهذا الحق ﴿كَرِهُونَ﴾
ومتبعون لأهوائهم، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ هذه ﴿لَفَسَدَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ لتعدد الأهواء، وتعارض الرغبات.

﴿بَلْ﴾ الحق الذي لا مرية فيه، ولا خفاء حوله، ﴿أُنِيتُهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: القرآن
الذي فيه ذكرهم وشرفهم وعزهم، لو آمنوا به، وعملوا بما فيه.

﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ منصرفون مبتعدون.

خامس هذه الأمور، التي قد يكونون بسببها كافرين، ما في قوله تعالى: ﴿أَمْ﴾ لأنك
يا محمد ﴿تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أجرًا ومكافأة على دعوتك لهم ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾
[الطور: ٤٠] إن كانوا يظنون ذلك ﴿فَ﴾ أعلمهم أن ﴿خَرَجُ رِيكَ خَيْرٌ﴾ لك من
خراجهم، وأنه سبحانه ﴿خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ﴾ وليسوا هم برازقين.

طبعًا، ليس لهم عذر في واحد من هذه الأمور التي ذكرت، يجعلهم يقفون من آيات
الله هذا الموقف!! ولكنه الجهل، والعناد.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٧٣﴾
 نعم ﴿وَإِنَّكَ﴾ في حقيقة الأمر، وواقعه ﴿لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام؛ لتقدمهم من عذاب أليم، وترشدهم إلى جنات النعيم.
 ولكن ما باليد حيلة كما يقولون.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ ٧٤﴾
 يعني: هم لا يستجيرون، ولا يؤمنون؛ لعدم إيمانهم باليوم الآخر.
 ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وما فيها من بعث وحساب، وثواب وعقاب
 ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾ المستقيم، وهو الإسلام ﴿لَنُكَبُّونَ﴾ لمنحرفون.
 ومن عجائب الأمور ما يقوله رب العزة عنهم:

﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٥﴾
 يعني: ﴿وَلَوْ﴾ استجبنا لهم، و ﴿رَحَّمْنَاهُمْ﴾ حينما يجأرون ويصرخون من شدة العذاب ﴿وَكَشَفْنَا﴾ عنهم ﴿مَا﴾ نزل ﴿بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ حينما يستغيثون بنا أتدرون ماذا يفعلون؟ الجواب: ﴿لَلَجُوا﴾ أي: استمروا وتمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ واستكبارهم وعنادهم، وعداوتهم للنبي ﷺ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون.
 وفعلًا كما يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٧﴾
 أي: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ وابتليناهم في الدنيا ﴿بِالْعَذَابِ﴾ وهو المصائب والنوازل والكوارث؛ ليؤمنوا!! فماذا كان موقفهم؟ إنهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: ما خضعوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ إيمانًا ﴿وَمَا﴾ كانوا ﴿يَضُرُّعُونَ﴾ له بالدعاء، والسؤال؛ تكبرًا وعنادًا، وظلوا كذلك على كفرهم وعنادهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا﴾ من العذاب ﴿ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أكثر إيلاَمًا وإيذاءً ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من رحمة الله؛ لعدم إيمانهم به سبحانه.

لَمَّا بَيَّنَّ رَبُّنَا عِزَّ جَلِّ مَبَالِغَةِ الْكُفَّارِ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَرُؤْيَا الدَّلَائِلِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وَالْإِعْتِبَارِ بِقُدْرَتِهِ!! قَالَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ - تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا لِلْكَافِرِينَ، وَتَذْكِيرًا بِالنِّعَمِ لِلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ لَهُمْ أَوَّلًا:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أي: فاستعملوها فيما خلقت له، واشكروا الله عليها، فإن من لم يستعملها: فقد صار كمن عدمها، ومن لم يشكر: صار كمن جحد فضل خالقها. ثم قال ثانيًا:

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: فاعمروها، وأصلحوها فيها، وأسعدوا عباد الله عليها، وما دمتم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في النهاية، فاستعدوا بطاعة الله لهذا اللقاء في يوم البعث. ثم قال ثالثًا ورابعًا:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وحده؛ لأنه هو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] وهو الذي يبعثكم، ويحاسبكم، ويجازيكم، فانتبهوا لذلك واستعدوا له.

كذلك ﴿وَلَهُ﴾ وحده القدرة على اخْتِلَافِ ﴿الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتتفكرون في هذه الأشياء، وتعتبرون بها!! فتؤمنون أيها الكافرون، وتشكرون أيها المؤمنون، هذا ولقد ازداد المؤمنون بها إيمانًا وهم يشكرون من فضل الله عليهم.

وأما الكافرون، فيقول عنهم ربنا تبارك وتعالى:

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يعني: ﴿بَلْ﴾ انصرف الكافرون عن التفكير، والتعقل، والاعتبار بما في آيات الله

هذه من دلائل توحيده، وخرجوا عن الموضوع إلى موضوع آخر، حيث ﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ من الكافرين الذين سبقوهم.

ولكن ماذا قال الأولون؟ ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ؟ إن هذا لا يعقل، ولن يكون!! يعني: أنكروا البعث وهؤلاء ينكرون البعث مثلهم إذا وهذه مصيبتهم الأولى .

المصيبة الثانية أنهم قالوا: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا﴾ أي: البعث بعد الموت ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا ليس بحقيقة بل الحقيقة أن هذا الكلام ما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وحكاياتهم التي اختلقوها، وليس عليها من دليل.

ويرد الله عز وجل على هؤلاء الذين ينكرون البعث، ويعبدون الأصنام، ويقولون عنها إنها تقربنا إلى الله بثلاثة أشياء، يأمر الحبيب ﷺ أن يقولها لهم.

الأول: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم واسألهم ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نأجيبوني؟ وسيجيبونك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾

﴿قُلْ﴾ لهم إذا ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ وتعرفون أن من قدر على خلقها من العدم قادر على إعادتها، وبعث من فيها؟ أفلا تؤمنون به، وتوحدونه؟!!

الثاني: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُ ﴿٨٧﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم واسألهم ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ؟ إن كنتم تعلمون فأجيبوني، وسيجيبونك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم إذا ﴿أَفَلَا نُنْقِزُ﴾ غضب الله، وتقرون أن هذا الرب العظيم قادر على البعث والإعادة، وأنه سيحاسب وسيجازي. أفلا تؤمنون به، وتوحدونه؟!!

الثالث: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم واسألهم ﴿مَنْ بِيَدِهِ﴾ وتحت قدرته ﴿مَلَكُوتُ﴾ ملك ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾؟ ﴿و﴾ قل لهم أيضًا واسألهم من ﴿هُوَ﴾ الذي ﴿يُجِيرُ﴾ يغيث من يشاء ممن يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: ولا يغيث أحد منه أحدًا..؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فأجيبوني!! وسيجيبونك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾!!

﴿قُلْ﴾ لهم إذا ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ تخدعون عن الحق، وعن توحيد الله وعبادته!! أفلا تؤمنون به، وتوحدونه!!

يقول عن هؤلاء ربنا سبحانه وتعالى:

﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠)

يعني: ﴿بَلْ﴾ أكثر من هذا استدلالاً على التوحيد والقدرة؛ حيث ﴿أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ الذي هو القرآن، وما فيه من آيات كثيرة.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ مع كل ذلك ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ مكذبون.

ثم يرد الله عز وجل على الجاعلين لله شريكاً من ولد أو صنم، وذلك بالدليل القاطع حيث يقول سبحانه:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٢)

يعني: لم يتخذ الله لنفسه ولداً، كما يقول القائلون بذلك، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ يشركه في ملكه وحكمه، وما يقوله كل فريق من هؤلاء باطل، إذ لو كان ما يزعمونه صحيحاً ﴿لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ﴾ واستبد به، وانفرد عن الآخر، وبالتالي

حدث النزاع بينهما، أيهما المالك القادر!!

﴿وَلَعَلَّآ﴾ بالضرورة ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ولغلب بعضهم بعضًا، وبما أنه لم تظهر آثار هذه المنازعات والمغالبات، فهو بالقطع إله واحد، وهو الله، الذي بيده ملكوت كل شيء.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ المنزه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأولاد والأنداد ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ ما يغيب عن المخلوقات ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما يشاهدونه، ﴿فَتَعَلَى﴾ وتنزهه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويقول الظالمون الجاحدون.

ثم يخاطب ربنا حبيبه ﷺ بهذا الخطاب الذي يدخل معه فيه كل مسلم. حيث يقول له رب العزة:

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

أي: ﴿رَبِّ﴾ يا رب كان ولا بد أن ﴿تُرِيدَنِي﴾ ما تعد به هؤلاء العصاة الطغاة الكافرين من العذاب، فافعل ما شئت، ولكن لا تجعلني قريبًا لهم، ولا تعذبني بعذابهم. ثم يطمئن المولى حبيبه ﷺ، بهذا الخطاب - كذلك - الذي يدخل فيه معه كل مسلم، حيث يقول له عز وجل:

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يعني: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب في الدنيا أو في الآخرة، مع نجاتك منهم، وعدم عذابك معهم، كما طلبت ﴿لَقَدِيرُونَ﴾.

وبعد ذلك يرشد المولى جلت حكمته وتعال عظمته، محمدًا ﷺ، ومعه أيضًا كل مسلم إلى ما فيه حسن المعاملة، حيث يقول له جل جلاله:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦)
 أي: ﴿ادْفَعْ﴾ إساءتهم لك ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ منك، قولاً وفعلاً، حيث إن ذلك مطلوب مع الخلق كلهم ما لم يؤد إلى نقص دين أو مروءة.
 ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ويقولون وسنجازيهم عليه، وهذا بالنسبة لبني الإنسان.
 وأما لبني الشيطان، فيقول المولى مرشداً:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٩٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨)
 أي: ادفع إساءتهم، ووسوستهم لك باللجوء إلى الله، والاستعاذة به عز وجل منهم
 ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ﴾ أمرين:
 أولهما: ﴿هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وهي كيده، ووسوسته.
 ثانيهما: ﴿أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: مجرد حضورهم.
 كل ذلك ليسلم من أذاهم، وينجو من شرهم.

إنَّ الإحسان إلى المسيء، ودفع السيئة بالحسنة، أمر فيه صعوبة على النفس، والشيطان يستغل هذه الثغرة في الإنسان، لذلك كانت آيات الاستعاذة من الشيطان، بعد آيات الإحسان إلى الإنسان، لتتعلّم منها أن هذا السلوك يحتاج إلى قوة في النفس، واستعاذة من الشيطان.

ثم ينبه ربنا جل وعلا إلى ضرورة المسارعة والإكثار من العمل الصالح، قبل فوات الأوان، حيث يقول جل وعلا:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٠٠)
 يعني: يظل المرء في غفلته ولهوه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ ورأى مقعده من النار، أو مقعده من الجنة، ساعة الاحتضار!!

﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا مرة أخرى ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وضيعت من عمري.

وهنا.. يجيبه المولى بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا رجوع، ثم يقول: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ أي: رب ارجعون ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ متحسراً نادماً، لا يسكت عنها، ولا ينال الرجوع بها. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أي: أمامهم بعد الموت ﴿بَرَزَجٌ﴾ حاجز يمنعهم من الرجوع ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) يعني: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يوم القيامة لبعثهم من مرددهم، وبعثوا ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ تنفعهم؛ لزال التراحم والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة، والفرع، ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ إذ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْرُّءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (١٠٢) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (١٠٣) وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ (١٠٤) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]. وساعتها تختلف أحوال الناس، ويختلف مصيرهم.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٥) أي: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالحسنات منهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة، ورضوان الله.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٦) أي: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بسبب السيئات والكفر منهم ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وضيعوها، وأصبح مصيرهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ فيها، لا يخرجون، ولا يموتون.

وعندما يقتربون منها ويدخلونها:

﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٧) يعني: ﴿تَلْفَحُ﴾ تحرق ﴿وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ عندما يقتربون منها، و عندما يدخلونها ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ عابسون، حرقت شفاههم، وانكشفت أسنانهم. ثم يقال لهم تبكيّاً وتوبيخاً:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥)

يعني: ﴿أ﴾ أهملتكم؟ و﴿لَمْ تَكُنْ ءَايَتِي﴾ من القرآن ﴿تُنَالَى عَلَيْكُمْ﴾ وفيها دعوتكم لتوحيدى، وتخويفكم من غضبى وعذابى؟

لا لم أهملكم، بل أرسلت إليكم رسولى بآياتى ﴿فَكُنْتُمْ﴾ له تعاندون، و﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أليس كذلك؟

أندرون ما جوابهم؟

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

أي: أنهم أقرروا واعترفوا بأن السيئات كتبت عليهم، وأنهم كذبوا، ولكنهم تعللوا بقولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلب علينا شقاؤنا بأعمالنا السيئة، التي عملناها، كذلك ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق، ضائعين عن الصواب، وقد بقي عندنا الأمل في النجاة مما نحن فيه.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ الآن ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر والتكذيب والعمل السيء ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا، فعذبنا.

فيكون الجواب:

﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا﴾ أي: اسكتوا سكوت مذلة وهوان وحقارة ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ بعد ذلك في رفع العذاب عنكم، أو تخفيفه، وفعلًا لا يتكلمون بعدها أبدًا، ولا يكون منهم إلا الشهيق والزفير.

ثم يقول لهم القوي العزيز: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ وهم المؤمنون

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ۖ اَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَاَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فلم تؤمنوا مثلهم، ولم تقولوا قولهم، بل ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً﴾ أي: مادة لسخريتكم واستهزائكم، وعبثكم ﴿حَتَّىٰ اَنْسَوَكُمْ﴾ من سخريتكم بهم ﴿ذَكَرْنِي﴾.

﴿وَكُنْتُمْ﴾ كذلك ﴿مِنْهُمْ﴾ ومن إيمانهم، ومن عبادتهم ﴿تَضَحَّكُونَ﴾ وتسخرون. بالطبع أنتم تعرفون أن ما أنتم فيه نتيجة لذلك، هل تريدون معرفة ما حدث لهؤلاء الذين كنتم تسخرون منهم؟

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ﴾ خيرًا ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم عن المعصية، وصبرهم على الطاعة، حقًا ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالسعادة، والسلامة، والنجاة من النار، والفوز بالجنة.

وبعد أن بين رب العزة استحالة رجوعهم إلى الدنيا كما سألوا، يذكرهم بما لبثوا فيها على كفرهم.

﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾

أي: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ وعشتم في الدنيا من السنين؟

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ﴾ ﴿١١٣﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ مجيبين: ﴿لَبِثْنَا﴾ ومكثنا وعشنا في الدنيا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقط، لا ندرى بالتحديد ﴿فَسَلِ الْعَادِينَ﴾ أي: الملائكة الذين كانوا يحصون علينا ويكتبون كل شيء، وقد قالوا ذلك من هول ما هم فيه من العذاب، الذي أذهب عقولهم، وطال عليهم.

وهنا: يكون الجواب القوي الواضح:

﴿قُلْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم: حقًا ما ﴿لِئْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالنسبة لما أنتم فيه مقيمون ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ علمًا يفيدكم.

ثم يوبخهم على غفلتهم وكفرهم بالبعث قائلاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ بلا غاية ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والثواب والعقاب؟! ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ عن هذا العبث الذي قد تظنون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ سبحانه لو آمنتكم به قبلاً، لنجوتم الآن فعلاً.

هكذا ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ويعبده ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ ولا برهان لأحد على ألوهية غير الله، ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ وجزاؤه ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، حقاً ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

وفي نهاية السورة يعلمنا ربنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله عز وجل:

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ ضارعاً ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ لي وللمؤمنين، ﴿وَارْحَمْ﴾ أي: ارحمني والمؤمنين بفضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين.

فأنت أهل لذلك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأفضل الغافرين.

﴿... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

